(2)
ثلاثة من المعاصرين
يتحدثون عن محمد الأديب

ظل الأستاذ مصطفى صادق الرافعى يحمل راية القرآن الكريم فى الجبهة الإسلامية ، مدافعًا عن دينه ولغته وأدب عروبته طيلة حياته الأدبية ، وكان قلمه موهوبًا مهيبًا من الذين يلحدون فى آيات الله ، ومعجزات رسوله ، كما كان حييًّا قريبًا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فأولئك الذين هداهم الله ، ولقد ظفرت السيرة المحمدية فى هذا العصر بمؤلفات مجيدة لأفذاذ أماثل من رجال الأدب والتاريخ ، ولكن الذين كتبوا عن البيان النبوى قليلون قليلون ، ولا أدرى كيف يكتب مؤرخو السيرة النبوية فى عصرنا مجلدات مطيلة فى حياة صاحب الدعوة الإسلامية ، ثم لا يطلقون لأقلامهم العدل فى تحليل بلاغته عليه الصلاة والسلام ، وهم يعلمون مكانها من نجاح الرسالة وانتشار الدعوة ، ولعل هؤلاء الأفذاذ ظنوا ذلك من صنيع مؤرخ الأدب لا كاتب التاريخ ، ولو فطنوا إلى واجبهم الأكيد فى دراسة البيان النبوى باعتباره المعجزة الأولى لصاحب الدعوة لأفاضوا فى تحليل الأدب النبوى إفاضة شافية ، لا جملاً مقتضبة تساق استطرادًا دون أن تعقد لها الفصول ، ولعل من توفيق الله أن يكون الأستاذ مصطفى صادق الرافعى قد اختص البيان المحمدى بنحو سبعين صفحة ألحقها بكتابه الشهير «إعجاز القرآن» ، ثم عاود الكرة حين كتب فصلاً تحليليًّا بارعًا من الأدب المحمدى كان مفتتح الجزء الثالث من «وحى القلم» ، وهو صنيع مشكور ، لا يقاس به صنيع معاصر آخر ممن أولوا بيان محمد ﷺ جانبًا من الاهتمام .

بدأ الرافعى حديثه عن البلاغة النبوية بمقدمة لا يخطها فى العربية إلا أديب كبير من أولئك الذين اشتهروا بنمط خاص من البيان ، يرتفع ويحلق متخذًا جناحيه القويين من الإلهام النافذ والبيان الناصع ، فهو يقول فى نسق شعرى قد اشتهر به وعرف عنه: «هذه هى البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآياتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهى من الأحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة .

الألفاظ النبوية يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل ، فقد كانت هى من دليله ، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة ، مجذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة ، وكأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هى فى سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ إن خرجت فى الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، فى منزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد فينزو بالدماء ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء» .

كلام رائع ساحر يزينه أن جاء فى مقدمة بحث علمى عن أفصح البلغاء ، ولو تخفف الرافعى قليلاً من طريقته البلاغية فيما بعد المقدمة من الفصول العلمية لأفاد قارئه أكثر مما أفاد ، لأن الكاتب الكبير رحمه الله قد عالج الأسلوب العلمى فى مباحثه المحمدية بطريقته الأدبية ذات المعانى المتداخلة والتحليق الطائر ، إلى حيث لا تقتنص فوائده إلا بعد كد وامتناع ، وهذا ما جعل كتابته عن الإعجاز القرآنى والبلاغة المحمدية لا تفيض على القارئ بكل ما حملها الكاتب الضليع من أفكار.. وقد جاءه ذلك من طبيعته الأدبية التى تدق وتدق حتى لتخفى على النبهاء فضلاً عن المتوسطين ، وأذكر أن أستاذنا الدكتور «عبد الوهاب عزام» رحمه الله قد قال مرة عن أسلوب الرافعى: إنه يعلو عليه أحيانًا فلا يكاد يدرك إلا أنه مرتفع وأنه فى

السماء ، أما ما تضمن من جميع المعانى فذلك ما غاب عن عزام فما ظنك بسواه من أمثالنا[1] .

بدأ الرافعى حديثه بفصل من فصاحة محمد ﷺ ، فوازن بينه وبين فصحاء العرب ، إذ كانوا يهذبون الكلام ، ويبالغون فى تجويده عن نظر متقدم وروية مقصودة وعن تكلف يستعان له بأسلوب الإجادة التى لا تسلم حينًا من عيوب الاستكراه والزلل ومن كلمة غيرها أليف ومعنى غيره . أراد أما رسول الله فقد كان لا يتكلف ولا يقصد إلى ترتيبه ، ولا يبغى إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده ، ثم لا يعرض له فى ذلك سقط ولا استكراه ولا تستزله الفجأة وما بيده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع وعن النمط الغريب وطريقته المحكمة بحيث لا يجد النظر طريقًا يتصفح منه صاعدًا أو منحدرًا، ثم أنت لا تعرف له إلا المعانى هى إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام ، وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتسديد وبراعة القصد والمجىء فى كل ذلك من وراء الغاية[2] .

وقد انتفع الرافعى فى حديثه عن الفصاحة بما قاله الجاحظ ، وأربى عليه بقوة التخريج وتعدد ضروب الافتنان ، لأن الجاحظ على تحدره وانصبابه لم ينبسط انبساط الرافعى فى القول بل طوى الكثير ، أما الرافعى فقد تحدث عن مولد محمد فى بنى هاشم ، وخئولته من بنى زهرة ، ورضاعه فى بنى سعد بن بكر ، ومنشئه فى قريش ، ومهاجرته إلى الأنصار مما يمد له من أسباب الفصاحة والإبداع ، وأذكر أنى فى باب (القرآن أستاذ محمد) من هذه الرسالة قد حكمت بأن ذلك كله من قبل العوامل المساعدة فقط ، فكم من العرب نشأ نشأة محمد ولم يبلغ درة من إبداعه البيانى ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ثم أفاض الرافعى فيما أفاض فيه الجاحظ

(١) « الأوابد » للدكتور عزام ، ص ٢٠٩ .

(٢) « إعجاز القرآن » ، ص ٣١٤ .

من أن العرب لسن مقاول ولو علموا عن الرسول شيئًا من العجز البيانى لنددوا به، وذهبت فى ذلك خطبهم وقصائدهم كل مذهب ، لاسيما وقد سفه أحلامهم ، وعاب آلهتهم ، والمولعون بالنقد الأدبى يجدون فيما تشابه من كلام الرافعى والجاحظ مجالاً للموازنة البارعة بين السابق واللاحق مما لا نطمع فيه الآن .

كما أسهب الأستاذ الرافعى فى الحديث عن صفات محمد الجسمية وحلاوة منطقه وبلاغة صوته ، ووشى ذلك بطابعه الأدبى المعهود ، إذ يقول عن محمد :

«وانظر كيف يكون الإنسان الذى تسع نفسه ما بين الأرض وسمائها ، ويجمع الإنسانية بمعانيها وأسمائها ، فهو فى صلته بالسماء كأنه ملك من الأملاك ، وفى صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك ، وما خص بتلك الصفات إلا ليملأ بها الكون ، ويعمه ، ولا كان فردًا فى أخلاقه إلا لتكون من أخلاقه روح الأمة» .

وإذا رجعت النظر فى تلك الصفات الكريمة ، واعتبرتها بآثارها ومعانيها رأيت كيف يكون الأساس الذى تبنى عليه فراسة الكمال فى نوع الإنسان من دلالة الظاهر على الباطن ، وتحصيل الحقيقة الإنسانية التى هى بطبيعتها روح الإنسان فى أعماله أو أثر هذا الروح أو بقية هذا الأثر ، فإذا تأملتها منسقة ، وتمثلتها قائمة فى جملة النفس ، وأنعمت على تأمل صورها الكلامية بالمعنى فإنك ستجد فى ذلك أبلغ ما أنت واجده من الأساليب العصبية فى هذه اللغة وأشدها وأحكمها مما يضطرب به الضعف ولا تزايله الحكمة ولا تخذله الروية ، ولا يباينه الصواب بل يخرج رصينًا غير متهافت ، ونسقًا غير متفاوت ، لا يغلب على النفس التى خرج منها بل تغلبت عليه ولا تسترسل به المخيلة بل يضبطه العقل ، ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرأى ، ولا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه ، بل تراه على استواء واحد فى شدة وقوة واندماج وتوثيق ، وهذا هو الأسلوب العصبى الممتلئ الذى قلما يتفق منه إلا القليل لأبلغ الناس وأفسحهم ، وقلما يكون أبلغهم وأفسحهم فى كل دهر إلا عصبياً على تفاوت فى نوع المزاج وحالته ، فإن من الأمزجة العصبى البحت ،

والمنحرف إلى مزاج آخر ولكل من النوعين حالة قائمة بالكلام ، وصف خاصة بالأسلوب[1] .

لقد أسرفت بعض الشيء فى الاقتباس من كلام الرافعى ، لأعطى القارئ صورة أمينة من أسلوبه العلمى ، وليرى معى كيف دق فى بعض المواضع دقة لم تسفر بجلاء عن كل ما يريد - ولو لمثلى - ممن لا يفهمون غير المطرد الصريح ، ولكل وجهة هو موليها .

أما ما ذكره الرافعى ابتداءً من صفحة ٣٢٧ عن إحكام منطقه ﷺ ، فقد جاء بديعًا صائبًا .

إذ علل صمت الرسول وتجمعه قبل الحديث تعليلاً نفسيًّا رائعًا ، فأبان كيف يمر منطقه ﷺ بالفكر قبل أن ينطلق إلى الفم، وأظهر أن العقل فيه من وراء اللسان، فهو غالب عليه مصرف له ، حتى لا يعتريه لبس ، ولا يتخونه نقص وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة ، وعذوبة المنطق ، وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه ﷺ عند أسبابها الطبيعية لم يتكلف لها عملاً ولا ارتاض من أجلها رياضة بل خلق مستكمل الأداة فيها ، ونشأ موفر الأسباب عليها كأنه صورة تامة من الطبيعة العربية[2] .

ثم عاود رحمه الله الكرة إلى الفرق بين فصاحة محمد وفصاحة سواه من جهة إحكام المنطق وامتلائه ، فإن أحدهم يكون مهيئًا لذلك من أصل الخلقة وبطبيعة النشأة ، بيد أن طباعه لا تتوافى إليه فى كل منطق وفى كل عبارة ، بل ربما غلبت خصلة على أختها ، ، وربما تخاذلت طبيعة من طباعه ، وربما ترك لفظه لبعض الضعف فى معناه فخرج من عادته فى النطق به ، وهذه كلها عيوب تلحق الفصحاء

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٢٤ .

(٢) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٢٩ .

من جهة النفس فى ضعفها واضطرابها وغفلتها ، ولكنها لن تكون لقوى النفس معتدلها متيقظها كالأنبياء وفى طليعتهم محمد .

وفى حديث الرافعى عن جوامع الكلم ، أبدع الكاتب ما شاء فى التعليل والتحليل ، وضرب الأمثلة واستعان بالجاحظ وسواه ، ثم تطرق إلى حديث مسهب عن نفى الشعر عنه ﷺ ، فأتى بأكثر المتعارف ، وأذكر أننى ناقشته نقاشًا جوهريًّا فى ذهابه إلى تصديق ما يروى خطأ عن كسر النبى بعض الأبيات الشعرية فى نطقه ، وذلك فى الفصل الذى تحدثت فيه عن موقفه ﷺ من الشعر والشعراء ، وقد ذهب الكثيرون من الكتاب قديمًا وحديثًا إلى ما ذهب إليه الرافعى فى ذلك ، وما قلته فى مناقشة الرافعى يقال لهم أيضًا ما دامت القضية واحدة لم تتغير ، وما أحب أن أعيد هنا الحديث .

ثم تحدث الأستاذ عن تأثير محمد فى اللغة ، فنص على ألفاظ وجمل وضعها الرسول وضعًا كالمخيلة ، مرادًا بها سبل الإزاء ، وكقوله «مات حتف أنفه» ، وقوله: «حمى الوطيس» «وبعثت فى نفس الساعة» ، ثم تابع القول فيما روى من الغريب فى بعض رسائله ﷺ إلى النازحين من الأعراب ، وقد أسلفنا القول فى ذلك ، ولم يكن الرافعى أبا عذرة هذا الموضوع فقد تابع سابقيه ، وهو مالا بد منه فى مجال التأريخ للبيان النبوى إذ كل لاحق من الكتاب يضع لبنات فوق لبنات وليس فى طوق كاتب معاصر أن ينشئ الصرح المرتفع إنشاء دون أن يستعين .

أما ما ذكره الرافعى عن سمات الأسلوب النبوى من الخلوص والقصد والاستيفاء ، فقد وفق فيه أكبر توفيق ، إذ أصاب الوصف الأدبى إصابة شافية مستوفاة وقد علل اطراد السمة الأولى فى بيانه ﷺ بأنه لم يكن فى العرب من ينفذ فى اللغة وأسرارها وضعًا وتركيبًا ، ويستعد اللفظ الحر ويحيط بالعتيق من الكلام ويبلغ من ذلك إلى الصميم ما يبلغه رسول الله ، إذ تهيأ له الأسلوب العصبى الجامع

المجتمع على توفق السرد وكمال الملاءمة ، وما من فصيح إلا وهو فى إحدى هاتين المنزلتين دون ما يكون فى الأخرى على ما يلحقه من النقص فيها جميعًا[1] .

وأما القصد والإيجاز والاقتصاد على ما هو من طبيعة المعنى فى ألفاظه ومن طبيعة الألفاظ فى معانيها ، ومن طبيعة النفس فى حظها من الكلام وجهتيه: اللفظية والمعنوية فذلك مما امتازت به البلاغة النبوية حتى كان الكلام لا يعدو فيها حركة النفس ، ودانت الجملة تخلق فى منطقه ﷺ خلقًا سويًّا ، أو هى تنزع من نفسه انتزاعًا وهذا عجيب حتى ما يمكن أن يعطيه امرؤ حظه من التأمل إلا أعطاه حظ نفسه من العجب .

وأما الاستيفاء فقد جاء به كلام محمد ﷺ على حذف فضوله وإحكامه ووجازته مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج ، ولا إحالة ولا اضطراب حتى كأن تلك الألفاظ القليلة ، إنما ركبت تركيبًا على وجه تقتضيه طبيعة المعنى فى نفسه ، وطبيعته فى النفس ، فمتى وعاها السامع واستوعبها القارئ تمثل المعنى وأتمه فى نفسه حسب ذلك التركيب فوقع إليه تامًّا مبسوط الأجزاء ، وأصاب هو من الكلام معنى جمومًا ، لا ينقطع به ولا يكبو دون الغاية ، كأنما هذا الكلام قد انقلب فى نفسه إحساسًا لنظر معنوى .

قال الأستاذ الرافعى :

«ولاجتماع تلك الثلاثة فى كلامه ﷺ وبناء بعضها على بعض سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والعى والخلط والانتشار ، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة كالمجاز البعيد الذى يغوص إلى الأعمال الخيالية وضروب الإحالة وفساد الوضع المعنوى وفنون الصنعة ، وما إليها مما هو فاش فى

(١) (٢) (٣) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٧٤ .

كلام البلغاء بعين جفاء البداوة على بعضه ، ورقة الحضارة على بعضه وهو فى الجهتين باب واحد[1] .

لقد صور الرافعى بلاغة الرسول كما تراءت له ، فأجاد التصوير على النحو الذى كان ينتظر منه ، وعلى الطريقة التى رضيها لقلمه وارتضته . وإذا كان سعد زغلول قد قال عن كتابه: «إعجاز القرآن» إنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم ، فما أحرى الزعيم الكبير أن يضيف إلى قوله أو شعاع من بيان النبوة أسفره به يراع مبين !

وقد أتى دور العقاد بعد الرافعى فى حديثه عن بلاغة الرسول ، وللأستاذ العقاد أسلوبه المنطقى الرصين الذى ينتظم فحولة الفكرة ، ورصانة التعبير انتظامًا يبرأ من الحشو والفضول ، فأنت حين تقرأ العقاد تقرأ مفكرًا واعيًا مرهف الحس قوى الملاحظة ، يأخذ بمجامع موضوعه أخذًا محكمًا ، فهو يعالجه معالجة الفاحص الملم والخبير المستشف ، ثم لا يترك على إيجاز قوله وصلابة تركيبه وراءه زيادة لمستزيد .

لقد كتب العقاد العظيم كتابه الخالد « عبقرية محمد » لا ليسجل سيرة الرسول الأعظم معددًا وقائعها ومواقفها فى شتى فترات حياته ، بل ليدل على مناحى العبقرية فى سلوكه الإنسانى بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين المسلم وكفى ، ومعنى ذلك أن قارئ «عبقرية محمد» فى كل ملة ولغة ودين إذا رزق محجة الإنصاف ، فإنه يرى شواهد العبقرية النبوية كما وضحها العقاد ساطعة بلألائها الزاهر ، فيدين لمحمد بالحق الذى يثبت له الحب فى قلب كل إنسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى .

وكان من المتوقع أن يخص الكاتب المبين بيان الرسول ببعض الحديث ، إذ أشاد ببلاغته فى أكثر من موضع ، أشاد بها فى باب (عبقرية الداعى) حيث تحدث

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٢٧٥ .

عن فصاحته ، فرأى أن الفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ولموضوع الكلام ، فيكون الكلام فصيحًا وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب .

ثم جزم العقاد: أن فصاحة محمد قد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئة نطقه بكلامه ، وفى موضوع كلامه فكان أعرب العرب كما قال عليه الصلاة السلام : «أنا قرشى ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » .

ثم سلك الكاتب طريقته المعروفة فى التحليل الكاشف ، والإقناع الهادف ، فقال :

«ولكن الرجل قد يكون عربيًّا قرشيًّا مسترضعًا فى بنى سعد ، ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل ، أما محمد فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصْل يحفظه من جلس إليه» .

اتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها فى أحسن مواقعها ، فهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم .

فهذا أيضًا قد تنزه عنه الرسول فى فصاحته السائغة من شتى نواحيها ، فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل على أنه قد أوتى حقًّا جوامع الكلم، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء مارزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام[1].

(١) « عبقرية محمد » للعقاد ، ص ٢٩ .

فها أنت ذا ترى العقاد قد سلك سبيل التحليل الفكرى ، حين قلب الأمر فى الفصاحة على أوجهه الثلاثة ليبين كيف تكون الفصاحة صفة فى الكلام دون هيئة النطق ودون موضوع الكلام ، وكيف تكون صفة فى الكلام وهيئة النطق وحدهما ، وكيف تجتمع فى النواحى الثلاث اجتماعًا يلتمس شاهده من حياة الرسول الأعظم، وهو ما عناه من موضوعه. فشفى حاجة النفس فى التحليل الكاشف والإقناع السديد. طيب الله ثراه .

وفى فصل خاص عقده العقاد عن محمد البليغ ، طالعنا الكاتب الكبير رأيه فى البلاغة النبوية حين بدأ الحديث بقوله فى إصابة وتحديد :

«اللهم ، هل بلغت ، هذه هى اللازمة التى رددها النبى فى أطول خطبه الأخيرة وهى خطبة الوداع ، وهى لازمة عظيمة الدلالة فى مقامها ، لأنها لخصت حياة كاملة فى ألفاظ معدودات ، فما كانت حياة النبى كلها بعملها وقولها وحركاتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه الصلاة والسلام ، وهو يجود بنفسه: «جلال ربى الرفيع فقد بلغت» ولصدق هذه الدلالة نرى أن السمة الغالبة على أسلوب النبى فى كلامه المحفوظ بين أيدينا هى سمة الإبداع قبل كل سمة أخرى ، بل هى السمة الجامعة التى لا سمة غيرها لأنها أصل شامل لما تعرف من سمات هى منها بمثابة الفروع»[1] .

ومضى الكاتب يستشهد بنماذج مختلفة من آثار الرسول من قصة ، وخطبة ، ورسالة ، ومعاهدة ليثبت أن الإبلاغ هو السمة المشركة فى أفانين هذا الكلام جميعًا ، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرءوسين ، أو مجرى الدعاء الذى يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله ، ثم ختم هذه النماذج المختلفة بتحليل كاشف يوضح السمة البارزة التى رآها الكاتب تطبع أسلوب النبى ﷺ بطابع

(١) « عبقرية محمد » ، ص ٩٥ .

فريد، وهى سمة الإبلاغ أو البلاغ المبين ، وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة: أقرب موصل بين نقطتين .

قال الأستاذ العقاد بصدد ذلك :

«فليس أقرب من هذا الأسلوب فى إبلاغ الغرض منه ، لا كلفة ولا غموض ولا إغراب ، والغريب بل ندرته فى كلام النبى أجدر الأمور بالملاحظة فى إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية ، فمحمد القرشى الناشئ فى بنى سعد ، العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبلية نائية الأطراف ، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة ، ومن ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتفهم عنه وأنه يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة ، كما قال: «إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها» وقد عرف عن النبى عليه الصلاة والسلام فى حياته الخاصة والعامة ، أنه كان قليل الكلام معرضًا عن اللغو ، لا يقول إلا الحق ، وإن قاله فى مزاح ، فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة ، فإذا كرر اللفظ ، بعينه فذلك أسلوب المعاهدات الذى لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه ، فهو أيضًا سمة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق أو على سبيل الإعادة التى روى أنه كان يتوخاها عليه الصلاة والسلام أحيانًا ليعقل عنه كلامه[1] .

ثم تعرض العقاد إلى موقف الرسول من السجع ، فروى أنه كان يكره سجع الكهان إذ يخدعون السامع حين يوهمونه أنه يستمع إلى طلاسم السحرة والشياطين، ولكنه لم يكن يأبى السجع بتة ، ولا يخلو كلامه مما جاء منه على السجية ويغلب أن

(١) « عبقرية محمد » ، ص ١٠٠ .

يكون ذلك فيما يرتل علانية كالآذان ، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة ، ثم استشهد الأستاذ على ذلك بقول رسول الله :

«ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست فى كتاب الله ، ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق» .

وكذلك قوله ﷺ :

«إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعًا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» .

ثم استشهد بنصوص أخرى من رسائل الرسول ومعاهداته ، وختمها بقوله :

«هذه أمثلة السجع الذى فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره وما عداه من تجميل الكلام ، فهو تجميل الإبلاغ الذى لا كلفة فيه» بعد أن قال قبيل ذلك عن سجع محمد ﷺ «إن مذهبه فى هذه الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل ، فحولة فى القول وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه الصلاة والسلام كحلية الذهب التى تليق بالرجل أن يتحلى بها ولا مزيد»[1] .

وخلص الكاتب بعد أن جال بجولة موفقة حول رسائل النبى إلى الملوك والأمراء ، إلى القول بأن أسلوب محمد فى الكتابة والخطاب أسلوب عصرى يقتدى به المعاصرون فى زماننا وفى كل زمان ، لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى فى جميع العصور ، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطًا للكلام العربى القديم والفصل بينها من علامات الأساليب المبتدعة فى الزمن الأخير ، ثم استشهد على ذلك بما يؤيده من البيان الشريف .

(١) « عبقرية محمد » ، ص ١٠١ .

ولم يفت الأستاذ العقاد أن يتعرض إلى رأى النبى فى الشعر ، فأوجز ما قيل فى ذلك ، ثم ذهب إلى أن محمدًا كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى؛ لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد ، وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون ، وقد سبق أن خالفنا هذا الرأى ، وجعلنا كلام الرافعى فى ذلك مجال التعقيب والتصحيح ، وإن كانت عبارة العقاد «لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد» أهون بكثير من قول الرافعى لأنه لو أقام وزن بيت لأمال به عمود الدين .

ثم ختم العقاد هذا الفصل الممتع عن بلاغة الرسول بكلمة عن «جوامع كلمه» ﷺ وقال بصدد هذه الظاهرة النبوية: إن الإبلاغ أقوى الإبلاغ فى كلام النبى هو اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات وقد بسطها الشارحون فى مجلدات .

ومن أمثلة ذلك – كما اختار العقاد – فى علم السلوك فى الدنيا والدين وقد جمعه كله فى أقل من سطرين قصيرين من قوله: «احرث[1] لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» .

ومن أمثلة ذلك فى علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله: «كما تكونوا يول عليكم» .

ثم أردف هذا النص بإيضاح ما ينطوى عليه من قواعد أصيلة فى سياسة الأمم، «إذ يدل على أن الأمم مسئولة عن حكوماتها ، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه ، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه، والإكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه» .

(١) الرواية المشهورة : اعمل لدنياك . وقد بحثت عن مصدر العقاد فلم أهتد إليه على أن الحديث ينسب للإمام على فى بعض الروايات .

وينطوى فيه أن العبرة بأخلاق الأمم لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومات ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف بالاستبداد ، ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوى فيه أن الولاية تبع لا تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأحرى ألا يغير الوالى قومًا حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

وينطوى فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث .

وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال .

وهذا هو الإبلاغ الذى ينفذ فى جهاته كل نفاد[1] .

وهذا التحليل العلمى السياسى لا يدركه غير مفكر كالعقاد؛ إذ استطاع بمجهره الثاقب أن ينفذ إلى ما يغيب عن سواه فى دنيا السياسة والتاريخ ، وإذا جمع العقاد كل هذه الروائع فى فصل كتبه عن بيان محمد ، فأى نفع يتاح للقارئ لو ألهم هذا الكاتب الكبير أن يبدع فى أدب النبى كتابًا متعدد الفصول والأبواب .

بقى أن نشير إلى بعض ما كتبه الأستاذ «أحمد حسن الزيات» صاحب «الرسالة» عن بلاغة محمد ، وأستاذنا الزيات ممن عشقوا البلاغة العربية ، وأبدعوا بعض روائعها الجميلة ودافعوا عنها تعبيرًا وتصويرًا وتفكيرًا ، وأرخوا لأدبائها على مد العصور ، وقد كانت «مجلة الرسالة» التى رأس تحريرها أكثر من عشرين سنة تصدر كل عام عددًا ممتازًا عن محمد والدعوة الإسلامية والتاريخ العربى يشهد بمحاسن العروبة والإسلام ، ويجمع أعلام الفكر فى العالم العربى محللين للكثير عن

(١) « عبقرية محمد » ، ص ١٠٧ .

مفاخر الإسلام وتراث محمد والعروبة.. فإذا كتب الزيات عن بلاغة محمد فقد كتب فى ميدان بيعد أحد أساطينه ، وتحدث عن رجل قد امتلأ ببيانه وهداه .

عقد الأستاذ الزيات فى الجزء الثالث من «وحى الرسالة» فصلاً جميلاً عن بلاغة الرسول ﷺ وذلك عبر ما كتبه عن محمد فى تاريخ الأدب العربى ، وفى نثار متفرقة من كتابه الجليل «دفاع عن البلاغة» فتحدث فى مقال وحى الرسالة عن موقفه الشخصى من بلاغة محمد ، وتساءل هل يستطيع أن يدرك كنهها الحقيقى وهى فى لبابها من صنع الله ، ولعل الأجدر بكلام الزيات أن يتحدث بنفسه لا أن نبتره بالتلخيص والاقتضاب ، فلنسمعه إذ يقول :

«إن بلاغة الرسول من صنع الله ، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن مقياسه ، فنحن لا ندرك كنهه ، وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه ، وإنما نعلم خبره ، هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ، وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ، وهل يجد فى نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلال والروعة؟ إن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد وحده»[1].

تلك مقدمة بليغة مهد بها صاحب الرسالة الحديثة ، ثم أخذ يبين كيف تجمعت فيه ﷺ خصائص البلاغة بالفطرة وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة ، إذ ولد فى بنى هاشم ، ونشأ فى قريش ، واسترضع فى بنى سعد ، وتزوج من بنى أسد ، ثم هاجر إلى بنى عمرو من الأوس والخزرج ، وهذه القبائل هى بالإجماع أخلص القبائل لسانًا وأعذبها لهجة ، والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والمنطق إنما هى المخالطة والمحاكاة ، ومضى الكاتب يتعرض موجزًا لتاريخ النبى الأعظم من

(١) « وحى الرسالة » ، ج ٣ ، ص ٨١ .

تصرفه فى التجارة وضربه فى الآفاق واعتكافه فى غار حراء ، وما اشتهر من إطالة سكوته وإدامة تفكيره ، ثم استشهد بما قاله الجاحظ فى حديثه عن بيان محمد ، وخلص من ذلك كله إلى تحديد خصائص الأسلوب المحمدى فقال :

«إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى الأصالة والإيجاز ، فالأصالة هى خصوصية اللفظ وطرافة العبارة ، تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية ، ويرتجله من الأوضاع التركيبية ، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية كقوله عليه الصلاة والسلام: (مات حتف أنفه) ، «الآن حمى الوطيس» ، «هدنة على دخن» ، «رويدك رفقًا بالقوارير» وقوله فى يوم بدر ، «هذا يوم له ما بعده ، ولتمكن الأصالة فيه» ، وكان يقتضب ويتجوز ويشتق ويبتدع فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسرًّا من أسرار اللسان ، يزيد فى ميراث اللغة ويرفع من قدر الأدب .

والإيجاز ، وهو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول ، لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ ، وشدة فى التماسك ، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح ، وقوة الشعور وقوة الذهن ، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه حتى عدت من خصائصه »[1] .

ثم عرج الزيات على ما أطال فيه الرسول من القول ، حين خطب بعد العصر فقال: ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، اتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلاً مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه.. قال الراوى: ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة فوق أطراف السعف ، وأشار إلى قدرته ﷺ العجيبة على التشبيه والتمثيل ، وإرسال الحكمة ، وإجادة الحوار ، وضرب الأمثلة الكثيرة على ذلك من البيان المحمدى ثم اختتم الأمثلة

(١) « وحى الرسالة » ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

المختارة بقوله ﷺ : «إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له: ما تصنع؟ فقال: هو مكانى أصنع فيه ما أشاء ، فإن أخذوا على يده نجا ، وإن تركوه هلك وهلكوا» .

ومن عجائب التمثيل النبوى أن يفتح للبلغاء أبواب التفكير حيث يستطيل ويمتد حتى يشتمل من مجريات الحوادث ، وأعاجيب الزمان فى كل عصر مما يرى فيه البليغ الثاقب موضع التطبيق والاستشهاد ، وقد سبق أن أشرنا إلى تعليق الأستاذ مصطفى صادق الرافعى على هذا الحديث ، حيث قال مصورًا ما يلمسه فى أحداث عصره من تهور أدعياء التجديد وجرأتهم على اختراق الحق بباطل الإفك :

«فكان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ، ويسمون أنفسهم بالمجددين ، وينتحلون ضروبًا من الأوصاف كحرية الفكر والغيرة والإصلاح ، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا، وآدابنا بفأسه أى بقلمه زاعمًا أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ، ويتولاه كيف أراد موجهًا لحماقته وجوهًا من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة ، جاهلاً أن القانون فى السفينة هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه ، كما يحكم على الأعمال الأخرى بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على توجه النية إليه ، فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد ، مادامت ملججة فى بحرها سائرة إلى غايتها ، إذ كلمة الخرق لا تحمل فى السفينة معناها الأرضى ، وهناك لفظة: (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى واحد هو (أوسع قبر) .

هذا ما أوحاه المثل المحمدى للأستاذ الرافعى ، أما ما أوحاه – هو بعينه – للأستاذ الزيات فقد عبر عنه بقوله :

«والسفينة التى ضربها الرسول مثلاً هى اليوم دنيا: الإسلام ، والعروبة تقسمها الإخوان والبنون فى عهود الضعف والانحلال ، فصار لكل منهم وطن ودولة ، ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة ، كما تجمع السفينة مواضع الركاب ، فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره ، فهو حَرِىٌّ ألا يغرق بحريته الجمع ، والوطن الجمع حرى ألا يغرق فى عبابه الوطن الفرد ، وكأن الرسول ﷺ بما آتاه الله من ألمعية الذهن ، وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لجامعة الدول العربية ، لعلها تتذكر فتتدبر ، وهى بلاغة الإلهام والفيض تكشف الحجب بنور الله ، وتخترق الغيوب بنفاذ البصيرة ، وترسل الكلمة من فيض الخاطر ، وعفو البديهة فتكون حكمة الحاضر ونبوءة المستقبل[1] .

وبالزيات نختم حديثنا عما قاله نفر من أفذاذ الأدب عن بيان محمد فى القديم والحديث ، وهى أقوال دقيقة مشخصة إذا تؤملت أصدق التأمل ، وتدبرت أعمق التدبر كانت فصلاً محكمًا عن سمات الأدب النبوى ، اجتهد فى بنائه صبابة من ذوى الفكر الحرَّ والرأى الأمين .

* * *

(١) « وحى الرسالة » ، ج ٣ ، ص ٨٣ .